(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ)

إنَّ الحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ ونَسْتَعِينُهُ ونَسْتَهْدِيهِ ونَسْتَغْفِرُهُ ونَتُوبُ إلَيْه ، ونَعُوذُ باللهِ مِنْ شُرُور أنْفُسِنا ومِنْ سَيِّئاتِ أعْمالِنا ، مَن يَهْدِه اللهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ ، وَنَشْهَدُ أنْ لاَ إلَهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَشَرِيكَ لَهُ القائل : (وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ) ونشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبد الله ورسوله القائل :

(إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكُوا أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ)

فاللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وسلم تسليما كثيرا وبعد فيَقُولُ الله تعالى :

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ)

أيها المسلمون : هذه الآية وردت في قصة سيدنا يوسف عليه السلام ، وكُلّ قِصَّةٍ لم يضَع القارئ يدَهُ على مَغْزاها فكأنَّما لم يقرأ قِصَّة أو أنَّ الذي قرأهُ ليس بقِصَّة فبداية الآية التي معنا قوله تعالى : (وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لاِمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ) وعندما نتدبر هذه الآية ونعيش فيها ستطمئن قلوب المؤمنين كيف ذلك ؟ لأن الله إذا أراد شيئًا لا يُرَد مهما دبر الماكرون فهو فعال لما يشاء وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ أي لا يدرون حكمته في خلقه فتعالوا بنا لنتدبر مكر إخوة يوسف بأخيهم يوسف وهم الكثرة في العدد وفي القوة فكان هذا المكر سببا في تمكين يوسف في الأرض أما هم فقد أذلهم الله! فهذا حوار دار بين يوسف عليه السلام وبين أبيه كما أخبرنا ربنا : (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ) كيف كان أول ما قال يعقوب لولده يوسف عليهما السلام: {يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا} [يوسف:5]، فلم يقصص يوسف عليهم؛ فهو الولد المعلَّم الطائع، وهم ما حضروا قطعًا مجلس يوسف وأبيه، ولكن {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ}، كادوا له، ولم يغن حذر من قدر، فوقع ما كان يحذر يعقوب -عليه السلام! وتأمل كيف أرادوا بفعلتهم أن يخلو لهم وجه أبيهم، وينفردوا بمحبته، وينزعوا حب يوسف من قلبه، لكن {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ}، ظل يعقوب يحبه ويرجف قلبه بمحبته هو، حتى بعد فقد أخيه ما قال إلا: {يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ} [يوسف:84]! فتأمل كيف كان يوسف في سويداء قلبه، وقال: {يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ} [يوسف:87]، فلم ينسه، وتطاولت الأزمان والسنون {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ}. وتأمل كيف أرادوا أن يجعلوه في قاع الجب، فرفعه الله إلى قمة المُلك، وقال المَلِك له: {إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ} [يوسف:54]! {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ}. وتأمل كيف أرادوا بيعه بيع العبيد فاشتراه من مصر عزيزها ليحيا فيها حياة الملوك وأبناء الملوك -بل ملكها هو بعد ذلك، وأرادوا بذلك إهانته فقال الذي اشتراه من مصر لامرأته: {أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا} [يوسف:21]؛ لتعلم أن {اللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ}! وتأمل كيف قالوا: {وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ} [يوسف:9]، أي تائبين، فغلب أمر الله حتى نسوا الذنب، وأصروا عليه حتى أقروا به بين يدي يوسف -عليه السلام- بعد سنين، وقالوا لأبيهم: {يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ} [يوسف:97]. وتأمل كيف كادت به امرأة العزيز، وغلقت الأبواب، وطلبت وقت غيبة العزيز؛ ليبعد ذلك عن علمه وعلم الناس، ولكن: {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ}، كشف الأمر وهتك الستر: {وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ} [يوسف:25]، وشاع الأمر حتى {قَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ} [يوسف:30]؛ لتعلم أن {اللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ}. وتأمل كيف ابتدرته بالكلام بين يدي العزيز؛ لتغلبه: {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ}؛ فأظهر الله براءته بشهادة شاهد من أهلها حتى استقر الحق في نفس العزيز، فقال لها: {وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ} [يوسف:29]، {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ}. وتأمل كيف كادت به هي والنسوة، وتعالت صيحتها وهي تقول: {لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ} [يوسف:32]، فأرادت إدخال الوحشة عليه بالسجن؛ فآنس الله وحشته بذكره لربه وإحسانه للخلق {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ}. وقالت: {وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ} فغلب أمر الله، وقال المَلِك: {إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ} [يوسف:54]، فأرادت إذلاله -عليه السلام؛ فأعزه الله، وجعل أقوات الخلق بين يديه! {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ}. وتأمل كيف دبر يوسف -عليه السلام- أن يخلص من السجن فطلب من ساقي الخمر أن يذكر شأنه للمَلِك فغلب أمر الله تعالى؛ إذ أراد أن يمكث يوسف في السجن بضع سنين، فأنسى الشيطانُ الساقي ذكر قصة يوسف للملك؛ فلبث يوسف في السجن بضع سنين {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ}. وتأمل كيف دبر يوسف شأن نفسه ليخرج من السجن في أول الأمر، ولكن أراد الله ألا يكون لأحد عليه منة، وأن يعلي قدره جزاء إحسانه؛ فأرى اللهُ الملكَ الرؤيا ليخرج يوسف مطلوبًا لا طالبًا، مرغوبًا لا راغبًا، ويقول الملك: {ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي} [يوسف:54]، {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ}. وتأمل كيف حاول الساقي إخفاء أنها رؤيا الملك فقال: {أَفْتِنَا} [يوسف:46]، ولم يقل: أفتِ الملك، وقال: {لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ} [يوسف:46]، ولم يقل: إلى الملك، حتى بادي الأمر قال: {فَأَرْسِلُونِ}، ولم يذكر جهة إرساله فتكتم قبل خروجه وحين جاء يوسف، ولكن {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ}، ففهم الملك وكشف الله الأمر له، وما نفع هذا الرجل ما فعل، وكان حقه أن يحسن لمن أحسن إليه {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ}. وتأمل كيف أراد يعقوب -عليه السلام- حفظ أولاده أن يصيبهم أذى فقال: {لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ} [يوسف:67]، وهو يعلم أنه لا يغني عنهم من الله شيئًا، وقد فعلوا {وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ} [يوسف:68]، ولكن غلب أمر الله ففقدوا واحدًا منهم {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ}. وتأمل كيف صنع الإخوة واستعدوا لبذل واحد منهم مكان أخيهم، ولكن غلب أمر الله، وما كان ليوسف أن يأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله -وقد شاء، فغلب أمر الله {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ}. وتأمل بعد هذا كله كيف كان تدبير الله ليوسف أن ينقل من كنف بيت النبوة إلى بلاط الملك والسياسة؛ ليكون هذا هو محل دعوته، ومكان عمله {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ}. وفي هذا كله... تأمل حفظ الله لأهل مصر! وكيف أخرج لهم من الشام يوسف -عليه السلام-؛ ليدبر لهم شأنهم في السنين العجاف؛ ولتبقى مصر سلة الغلال وخزانة الدنيا، تأتيها الناس لتطلب ميرتها منها، وما ذلك إلا بتدبير الله لها {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ}. وتأمل كيف كان قدر الله لبني يعقوب -بني إسرائيل- أن يأتوا إلى مصر ليستوطنوها، لتبدأ دورة أخرى في حياة البشر، ليأتي بعد ذلك فرعون فيستعبدهم، ثم يبعث الله موسى -عليه السلام؛ ليستنقذهم {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ}؛ لتعلم بعد هذه الكلمات: أن الله عزيز؛ إذا أراد شيئًا وأراد كل الخلق شيئًا؛ كان ما أراد الله، ولا مغالب لما أراد {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ}. فلا تكن بعد هذا كله ممن قال الله فيهم في آخر السورة: {وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ} [يوسف:105]!

الأحداث العظام التي وقعت في زمننا المعاصر، كأحداث الحادي عشر من سبتمبر وما تلاها من أحداث وحروب، أراد الغرب بمكرهم الكبار من ورائها أن يصدوا الناس عن الإسلام ويخوفوهم من الشريعة الإسلامية، ولكن النتائج كانت عكسية، فقد كان لهذه الأحداث العظام أثر عظيم في تعريف الناس بالإسلام، والبحث عنه، والاطلاع على عقائده ومعتقداته (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) [آل عمران: 54].

لم ينفعهم مكرهم في الدنيا وتحول ضدهم، وانقلب السحر على الساحر كما يقولون، وأما في الآخرة فسيرون حقيقة مكرهم وسذاجتهم، كما قال -سبحانه وتعالى-: (وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ) [فاطر:10].

إن الكيد لا يضر إلا صاحبه، والمكر لا يقع في النهاية إلا على من قام به، فلا يغتر الإنسان بدهائه وذكائه، ويظن نفسه أنه داهية أو مخطط أو ماكر فإنه إنما يضر نفسه، ويحفر قبره بيده، يقول عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-: "إن البغي يصرع أهله، وإن على الباغي تدور الدوائر". ويشهد لهذا قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) [يونس: 23]. ويقول عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-: "إنا نجد في كتاب الله: (وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ)".

عباد الله: إن الله -سبحانه وتعالى- ذكر في كتابه العظيم حقائق ناصعة، وشواهد باهرة، وحجج دامغة، ومن هذه الشواهد والحقائق إخباره -سبحانه وتعالى- أن المكر السيئ لا يرتد إلا على صاحبه، ولا يحيق إلا بأهله، كما قال تعالى: (اسْتِكْبَارًا فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً) [فاطر: 43].

هذه حقيقة يجب أن نؤمن بها، ونستيقن منها، ونجعلها دائماً نصب أعيننا، فمهما مكر الماكرون أو كاد الكائدون فإن مكرهم سينقلب عليهم ويرتد ضدهم، لأن الله -جل جلاله- أخبر وخبره الحق المبين أن المكر السيء لا يحيق إلا بصاحبه، ولا ينقلب إلا على أهله.

إن هذه الحقيقة الإيمانية الربانية تمنحنا الأمل الكامل والرجاء العظيم في الله -سبحانه وتعالى-، فمقاليد الأمور كلها بيده -سبحانه وتعالى-، وهو الذي يؤيد أولياءه وينصر أنصاره، ويرد كيد أعدائه، ويبطل مكرهم ومخططاتهم، كما قال -سبحانه وتعالى-: (بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) [الرعد: 33]، وقال: (وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)